إن جسمي من بعد خالي لَخَل

للأديب ناصر الدين النشاشيبي

(بمناسبة ذكرى وفاة العلامة النشاشيبي)

أبكيك اليوم يا خالي في يوم ذكراك وكأنني فقدتك في أمسي القريب، وأتوجع عليك بعد عام في مرارة القريب وأسى الحبيب، فلا أدري أأحدثك عن نفسك — وأنت أشد الناس عداوة للحديث عن نفسك. أم أنقل إليك أخبار وطنك وأنباء أمتك — وأنت أحرص أمة محمد على أرض الرسل ومسرى الأنبياء، وأشد الناس فخراً بخير أمة أخرجت للناس... فيبكيك حديثي، ويشجيك نواحي وأنيني، ويزعجك في مثواك الأخير صيحات بلدك الممزق، وأمتك المشردة، وتراثك الضائع، وأملنا المفقود!!

كيف أبكيك وما عرفتك إلا جباراً في جميع نواحي حياتك؛ إن تحدثت خرجت كلماتك كالقذائف من أعماق نفسك، وإن خطبت — وما عرفتك خطبت — إلا بكيت وأبكيت. وما سمعتك تحدثت إلا أثرت وتأثرت، وما قرأت لك إلا تمثلتك أحد الصحابة في إيمانك وصوفيتك، وما من مرة ورد ذكرك على لسان الناس إلا وجموا يذاكرتهم إلى عصر النبي وأيام الجاحظ وأبي عبيدة والمبرد وصفوة الأدب الخالد... يتجسرون على بحور العلم وقد مسها الجفاف، وموسوعة الأدب والعبقرية وقد احتواها — ويا أسفي — التراب!!

هذا حديثي إليك بل بكائي عليك على صفحات رسالة صاحبك إمام النثر كما كنت تدعوه. وهو يسألني عن « النقل » فلا أجده، وعن الحديث فلا أسمعه، وعن المجلس فلا تبصره، ثم نفتقدك في أيام الشتاء — أيامك في قاهرة المعز — فنجد مكانك المعتاد وقد أقفر من الصحب والخلان، وزوارك السارقين والمترفين وقد تخلفوا عن الركب وانقطعوا عن الزيارة، وما زالوا في دهشة من أمرك، وحيرة من مصيرك، يسألون ويتساءلون:

— كيف..؟ كيف تخلفت، وكيف غبت، وكيف انقطعت يا أعز الراحلين..؟!

إن قلبي ليبكيك بلسان الكثيرين من تلاميذك وزملائك وقد عشت لهم مخلصاً ومتفانياً في أدبك، وجاهدت في سبيلهم بجهادك القوي في سبيل المعرفة، ومشيت معهم نحو دنيا النور والعلم فما كلت لك عزيمة، وما وهنت لك إرادة، وما عرفت معنى للضعف وأنت تصل الليل بالنهار في دراساتك وأبحاثك متنقلاً بين القاهرة « موئل العرب والعربية » وبيروت (وبيروت مدينة تهذيبي) وحلب الشهباء بلد صديقك إبراهيم « سلام على إبراهيم » ! وبغداد حصن المعدون « وأمة منها المعدون لن تموت » ! وكنت في كل أطوار حياتك المثل الأول لمن يحيا في سبيل فكرة — فكرة محمد ولغة محمد! ولمن يجاهد في سبيل مبدأ — مبدأ العرب والعربية. وهذه الإشارات تملأ أرجاء قصرك — « يا عبد..!! » وهذه الآيات البينات تزين أسوار بيتك — « أنا عبدك يا رسول الله..! » وهذا الضعف في كبرياء القوي وهذه القوة في تواضع المسلم وهذا الإخلاص للغة الكتاب « أنا عبدها.. أنا عبد عبدها.. أنا عبد كل عبد يسود بعبديتها » وهذا تراثك في محمد ولغته ورجاله وهذا « إسلامك الصحيح » و « بستانك » و « كلماتك » و « نقلك » و « خطبك » وكل ما كتبت ونقلت وصححت وراجعت الدليل الصادق على أنك عشت وما عشت إلا لإسلامك، وعملت وما عملت إلا للغتك ولغة نبيك!

نشأت ثائراً على الدنيا وأنت وحيد أبويك فثارت عليهما وعلى الأهل والقربى. وترعرعت بين الخير والنعيم لدفعته بيديك ورغبت عنه لتشبع نفسك بصوفية الأقدمين، وزهد المؤمنين، ومشيت في خطوات الحياة لا أنيس لك إلا الشاعر أو ديوانه،